

## عن عصمت سيف الدولة وعبد الناصر والناصرية

### د . صفوت حانج

نبدأ هذه الدراسة بمقتطف من عصمت سيف الدولة يقول فيه : " أريد أن أقول ، بأكبر قدر من الوضوح ، أنني كنت ولم أزل على يقين يتحدى أي شك بأن " الناصرية " هي " نظرية الثورة العربية " . وأن الناصري هو من يقبلها ويلتزمها وينميها بخبرة ما أنقضى من سنين الردة ولكن طبقاً لمنهجها ، ومن منطلقاتها ، إلى غايتها ، بأسلوبها . وأن من يناقضها منهجاً أو منطلقاً أو غاية أو أسلوباً لا يستحق عندي على أي وجه أن ينسب إلى الناصرية ولن تثبت نسبته إليها ولو كانت بيده شهادة موقعة من عبد الناصر شخصياً " (١)

١- لم يكن عصمت سيف الدولة ، راغياً في الرحيل عن عالمنا دون أن يحدد بنفسه ، فيما أعتقد ، وعلى أعلى مستوى من الوضوح طبيعة علاقته الفكرية والمادية بعبد الناصر والناصرية ... العلاقة التي صورتها بعض العقول جامحة الخيال ، علاقة غريبة وغامضة . ولقد كان يكفي لمعرفة هذه العلاقة العودة إلى كتابه عن الناصريين ... وإليهم ( ١٩٨٧ ) . ليتضح بجلاء موقفه الشخصي والسياسي والفكري من الرئيس عبد الناصر والناصريين ، وقد ختم هذا الكتاب بدراسة فكرية أرادها عن الناصرية والناصريين ، تبدو لي الآن وكأنها وصية سياسية من مفكر ومناضل سياسي كانت حياته كلها تجسيدا مثالياً ( ودرامياً ) لأفكاره التي آمن بها ودفع ثمنها .

في هذا الكتاب قال عصمت سيف الدولة كل ما كان يود أن يقوله عن عبد الناصر والناصرية والناصريين . وفي هذا الكتاب كان يرد على ذلك السؤال المستفز الذي طالما سأله له الكثيرون : هل أنت ناصري ؟

لم يكن هناك سؤال يستفز مفكرنا الكبير أكثر من هذا السؤال الذي كان يوجهه له بعض الشباب الناصري في لقاءاتهم العامة والخاصة ، وكان يجيبهم إجابة " مستنزة " أيضاً . ولكنه الاستنزاز الذي يحرض على التفكير والتساؤل عند الشباب العربي .. كان يجيب : إذا أوضحت لي عن أي ناصرية تتكلم .. يمكن أن أقول لك إذا ما كنت ناصرياً أم لا !!؟

### حديث عن عبد الناصر

٢ - الواقع أنه لم يكن هناك موضوع أكثر التباساً في ذهن بعض الشباب العربي فيما يخص عصمت سيف الدولة سوى موضوع علاقته بعبد الناصر أو إذا شئنا بدولة عبد الناصر ومؤسسات عبد الناصر .

كيف يرى كاتب هذه الدراسة موقف عصمت سيف الدولة من عبد الناصر ؟

الواقع أن كاتب هذه الدراسة لا يملك إلا أن يجتهد في الإجابة على هذا السؤال في حدود رؤيته الشخصية التي يتحمل وحده مسؤوليتها .

كاتب هذه الدراسة يعتقد أنه لا يمكن أن نفهم موقف عصمت سيف الدولة وكتاباتاته التي بدأت في منتصف الستينات دون الاستعانة بما يقدمه لنا علم " اجتماع المعرفة " من مبادئ وافترادات نظرية .

تعلمنا مقولات " علم اجتماع المعرفة " ( وهو العلم الذي يبحث في شروط وظروف انبثاق المعرفة الإنسانية ) أن " الفكر البشري " لا يأتي من فراغ أو من تدريب ذهني محض ، بل ينبغي الربط بين الأفكار والنظريات والواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي ظهرت في سياقها باعتباره واقعا تاريخيا . ذلك أن فهم الأفكار أو المذاهب السياسية أو النظريات العلمية أو الشخصيات السياسية ليس مقطوع الصلة بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي نشأت فيها ، وبخاصة إذا سلمنا بالعلاقة الجدلية بين عالم الفكر وعالم الواقع . وهكذا يمكن أن نقول أن دراسة فكر أي فيلسوف أو زعيم سياسي من دون البحث في نشأته الاجتماعية التي نمت داخلها أو من دون بحث في الأفكار والثقافات التي تلقاها في صغره هو نوع من الهراء . فالفيلسوف أو الزعيم السياسي هو نتاج عصره وأسرته ووطنه ، وبالتالي يتعين البحث عن أصول النظريات والأفكار في أحشاء المرحلة التاريخية التي عاشها وأبدع فيها فكره أو مذهبه أو نظريته .

٣ - إذا كان ذلك صحيحا ، وهو في رأينا صحيح ، فإننا لا يمكن أن نفهم ما كتبه عصمت سيف الدولة ونديم البيطار وعبدالله الريماوي إلا في ضوء ما أثارته تجربة عبد الناصر من تحديات فكرية وتطبيقية عند المفكرين الثلاث . لقد راح كل منهم يبدع بطريقته رده على هذه التحديات وفقا لمنهج محدد خطه كل منهم لنفسه ، فرأينا البيطار يبدع وفق ما سماه " المنهج التاريخي المقارن " ورأينا الريماوي يبدع وفق ما سماه منهج " الحركية الحياتية الإنسانية " ورأينا عصمت سيف الدولة يبدع وفق ما سماه " جدل الإنسان " .

وكانت الإجابات الثلاث ، أو المناهج الثلاث ، هي تأصيل لما رآه كل منهم واجبه الفكري تجاه التجربة الناصرية .

وبينما استفاد الأستاذ الريماوي - بحكم علاقة تاريخية محددة بالرئيس عبد الناصر وحزب البعث - من علاقة ودية نسبيا مع مؤسسات الدولة الناصرية في وقت ما ، لم يكن نصيب " البيطار " من هذا " الود " الكثير رغم زيارته المتعددة للجمهورية العربية المتحدة ويمكن القول أن مؤسسات عبد الناصر الفكرية لم تلتفت لجهود " البيطار " رغم ناصريتها الواضحة لأسباب تتطلب تفسيراً من هؤلاء الذين كانوا قائمين على هذه المؤسسات !!؟

أما الفارس الثالث " عصمت سيف الدولة " فقد كان يقيم ويعمل ويجتهد على أرض مصر وأمام أعين مؤسسات الدولة الناصرية وأجهزتها الفكرية والسياسة والأمنية . ويمكن أن نقول أنه لم يحظ لا بالود ولا بالتجاهل وإنما حظى بكثير من التوجس والعداء .. لماذا ؟ .

٤ - من ناحية .. كانت كتب عصمت سيف الدولة في نقد المادية التاريخية والمادية الجدلية والماركسية بشكل عام لا تحظى بأي ود من النخبة المثقفة الماركسية التي ركزت قواعدها منذ منتصف الستينات في الاتحاد الاشتراكي العربي والمعهد العالي للدراسات الاشتراكية والصحافة والمسرح والسينما . ومن يعود لمجلة " الطليعة " في ما كتبه في الستينات عن دعاة " الاشتراكية العربية " سيطالع فيها هجوماً على كل من كتب عن " الاشتراكية العربية " . وهو يفسر لماذا لم تكن كتابات " عصمت سيف الدولة " أو " البيطار " تلقى الترحيب في برامج التنقيف الرسمية . و لم يكن لرجال عبد الناصر من الكفاءة الفكرية ما يمكنهم من القدرة على التنظير ، وبقي عبد الناصر هو المفكر الحقيقي والوحيد لتجربته ، بينما اقتصر دور الآخرين على التريديد والتبرير النظري لما يقوله عبد الناصر .

والحق يقال كان الفارق النظري بين عبد الناصر وبين رجاله كبيراً فلم يجد هؤلاء بدأً من الاستسلام للجهود الفكرية والمنظمة التي " تبرع " بها البعض ، ما أسهم في إبعاد الفكر القومي التقدمي الجديد عن دائرة الفعل السياسي في تجربة عبد الناصر ولو بتعمد تجاهل الأصيل منه بخاصة .

٥ - من ناحية ثانية ... كانت كتب " عصمت سيف الدولة " قد بدأت تكتسب أنصاراً لها من الشباب العربي خارج مصر وبدون تخطيط مسبق وبعيدا عن " أجهزة الدولة الناصرية " .

والواقع أن دور هذه الأجهزة وما أدته خلال حكم الرئيس يجب أن يكون محل دراسة موضوعية من الناصريين أنفسهم . فالذي لاشك فيه أن أكثر من مناضل ناصري كان قد شكى للرئيس عبد الناصر من " بيروقراطية " هذه " الأجهزة " ومن أنها تتعامل مع الشباب العربي أحيانا كمجرد أتباع مستغلين في هذا عواطف الحماس والحب الذي اسبغها هؤلاء على زعامة الرئيس عبد الناصر شخصيا .

وإذا أضفنا لكل ذلك أن القاهرة كانت قد تحولت في الستينات الى كعبة للنضال العربي وامتلأت شوارعها ومقاهيها ومنتدياتها بعدد ضخم من اللاجئين السياسيين والمناضلين والزوار من كل أرجاء الوطن العربي وما كان يعنيه هذا من لقاءات وحوارات فكرية كان طرفا فيها عصمت سيف الدولة وفكره وكتبه ، يمكن ، عندئذ ، ان نتصور ما سيسببه ذلك من حساسية لدى " أجهزة عبد الناصر " .

على أية حال سيصدر عصمت سيف الدولة قبل نكسة حزيران / يونيو عام ١٩٦٧ كتبه أسس الاشتراكية العربية و الطريق للاشتراكية و الطريق للوحدة و الطريق للديمقراطية .. أو سيادة القانون في الوطن العربي لتكون مساهمة كبيرة في التأسيس لما كان يقوله ويفعله عبد الناصر، من دون أن يكون جزءاً من نسيج نظام عبد الناصر نفسه ... لماذا ؟

٦ - ويجب عصمت سيف الدولة : " حينما كانت الحركة الجماهيرية القومية منتصرة تحت قيادة عبد الناصر كتبت ما كتبت حاثاً ومحرضاً جماهير الأمة العربية وقيادتها على عدم التوقف عند الوحدة الجزئية ، وعدم الاكتفاء بوحدة القيادة ووحدة الحركة من دون وحدة التنظيم . وساندت بالدراسات المكتوبة التي لم تنسب الى قط كثيراً من القوى القومية ضد التجزئة في كثير من الأقطار العربية . ولم أكتب شيئاً قط عن مصر تحت قيادة عبد الناصر التي كانت الأمة العربية قد كسبتها قاعدة قائدة انصرفت فيها الى تأصيل الوحدة وتبرير التضحيات من أجلها والتوحيد بينها وبين النصر في كل معارك التحرر والتقدم .. وقد عوتبت أيامها على أنني لم أذكر في كتبي لا مصر ولا الميثاق ، ولا حتى عبد الناصر . وكان المعاتب صديقاً قديماً لي ومن أقرب الناس الى عبد الناصر . وكان جوابي أنني أقاتل بما أكتب في سبيل أمتي ووحدتها القومية حيث تدور المعارك مع الأعداء واحتمالات النصر أو الهزيمة . ولست معنياً ، ولا أنا أجيد ترتيباً أناشيد النصر للمنتصرين ... ومصر عبد الناصر ( ١٩٦٦ ) منتصرة فهي في غير حاجة الي . وخسرت كثيراً وكثيرين لم يفهموا ذلك الموقف . ولكني لم أعبأ بالتوقف لمعرفة ماذا ومن خسرت ... كان الأكثر استحقالاً للانتباه مساندة الحركة المنتصرة حتى يتحقق النصر الأخير .. فرأى من رأى أنني أستحق لقب " قومي " وكان ذلك بالنسبة الي كسبا عظيماً .. " (٢)

وربما يرد البعض بان هذا تفسير متأخر لعصمت سيف الدولة لموقفه من عبد الناصر وقيادته للحركة القومية ولا يمكن الإحتجاج به على موقفه إثناء حكم الرئيس عبد الناصر ؟

نعم هذا تفسير يعود لعام ( ١٩٨٧ ) حين كتب كتابه عن الناصريين .. وإليهم وفيه روى كل روايته مع قيادة عبد الناصر ودولة عبد الناصر ورجال عبد الناصر . وسيبقى هذا التفسير منقوصاً ما لم نتكلم عن " بيان طارق " وقصته :

### حديث عن بيان طارق

٧ - قبل أن ينتقل عبد الناصر الى رحاب ربه بسنوات قليلة كان قد مر بأكثر معاركه مرارة وألماً : نكسة حزيران / يونيو .. الهزيمة التي مزقت كثير من الأفئدة والقناعات في الوطن العربي .

وراح " المنافقون " و " المذبذبون " يخوضون في أسباب النكسة بغرض تصفية حساباتهم القديمة مع عبد الناصر . وهكذا ظهرت المعلقات اليساروية عن " البورجوازية الصغيرة المهزومة " و " الحرب الشعبية " والمقاومة الفلسطينية التي سترد على هزيمة البورجوازية الصغيرة . وسط هذه " الهزيمة العسكرية " تماكت الجماهير العربية نفسها وطالبت قائدها بالاستمرار في القيادة ومواجهة الهزيمة . ووقف القائد وبدأ في مواجهة الهزيمة رغم آلامه الشخصية وكان لابد له من أن يعيد النظر كاملاً في بنية الدولة والمؤسسات التي شيدها بنفسه وبالثغرات التي سمحت للعدو بالنفوذ منها وتحقيق نصره . لحظة شاملة من مراجعة النفس قادها عبد الناصر مع فكره ودولته ومؤسساته ( مراجعة يعرفها الكثيرون ممن اهتموا بفكر الرجل وحياته ) .

ووقف في نفس الخط - نقد الذات - كل القوميون الذين هزتهم " الهزيمة " فلم يستسلموا لردود الفعل المرتاعة التي استسلمت لها " الجملة المثقفة الطفولية " .

لقد أتضح " لعبد الناصر " وكل القوميون العقائديين أن هناك ثغرة واسعة ومفتوحة في بنية الثورة . وكما خرجت الجماهير تطالب عبد الناصر بالاستمرار في موقعه في ٩ و ١٠ حزيران / يونيو ١٩٦٧ خرجت مرة أخرى تطالبه بمحاسبة المسؤولين عن الهزيمة في مظاهرات ١٩٦٨ . وكان من هؤلاء " عصمت سيف الدولة " .

لقد أدرك عصمت سيف الدولة بشكل واضح طبيعة الخلل في الدولة الناصرية . إنها " الأجهزة الأمنية " التي حاولت أن تحجز القائد عن جماهيره بكل وسائل النفاق والقهر والبيروقراطية .

كيف يمكن - إذاً - تخليص البطل من قبضتها وإعادته لجماهيره ليعاود بها ومعها انتصاراته ؟

بالتنظيم القومي ...

٨ - كتب عصمت سيف الدولة بعد نكسة حزيران / يونيو كتيباً صغيراً بعنوان " بيان طارق " يطالب فيه الشباب العربي ويحثهم على بناء " الحركة العربية الواحدة " ( أو التنظيم القومي ) لتكون تنظيماً جماهيرياً بقيادة عبد الناصر ، على أن يتم إعلان هذا عام ١٩٧٠ . وكان عبد الناصر هو الذي حدد عام ١٩٧٠ لإعادة النظر في " الميثاق " كوثيقة فكرية .

كان هدف " عصمت سيف الدولة " من " بيان طارق " ان يبدأ الشباب العربي في تكوين التنظيم خارج مصر وبعبدا عن أجهزة الدولة الناصرية لكي تتاح له ظروف النشأة الديمقراطية ، ثم تلتحم هذه القواعد " المنظمة " بقائدها الجماهيري عبد الناصر عندما يعلن عن عقد مؤتمر القوى الشعبية في القطر المصري حسبما كان يخطط عبد الناصر قبل النكسة .

وكل هذا واضح من كلمات " بيان طارق " .. وهو " منشور " أو كتيب ثار حوله اللغظ مرارا ولم يتيسر للكثيرين قراءته رغم أنه نشر بعد ذلك في إحدى طبعات كتابه نظرية الثورة العربية.

في هذا الكتيب " المنشور " حدد عصمت سيف الدولة بوضوح طبيعة موقفه من " قيادة عبد الناصر " للحركة القومية كما حدد بوضوح تام موقفه من " أجهزة عبد الناصر " :

### حديث عن قيادة عبد الناصر للتنظيم القومي

٩ - كتب عصمت سيف الدولة فيما كتب في " بيان طارق " :

" ... إن الطريقة الوحيدة للتغلب على العقبات التي تطرحها الإقليمية والإقليميون هي وجود التنظيم القومي فعلاً . لهذا فإن تلك الصعوبات لا يمكن أن تقبل كعذر لتقاعس الثوريين العرب عن تكوين التنظيم القومي . إنها بعض الأسباب الجدية التي يجب أن تحرضهم على الإسراع في هذا التكوين . أما الصعوبات ذات الطبيعة القومية فهي النابعة من صفوف الثوريين العرب وعلاقتهم وطبيعة المرحلة التاريخية التي يمر بها النضال العربي وهذه هي التي تشكل بالنسبة الى مولد التنظيم القومي مشكلة لا بد لها أن تحل بالطريقة المناسبة أي بالطريقة التي توفق بين وحدة الثوريين العرب في تنظيم قومي واحد ، ومتطلبات النضال القومي قبل مولد هذا التنظيم . قياساً على هذه التفرقة نجد أن الصعوبات المتبقية مما عدناه أنفاً تنقسم الى قسمين :

الأول : يمثله نشاط بعض الأجهزة في جمهورية مصر العربية وعدم كفها عن التدخل في الميدان الجماهيري العربي مع عجزها عن أن يكون هذا التدخل في خدمة التنظيم القومي . وهذا القسم من الصعوبات هو الذي يحتج به الكثير من العرب ذوي الخبرة في التعامل مع هذه الأجهزة . والاحتجاج به ينسى أن تلك أجهزة ج.م.ع الدولة . الدولة الإقليمية . أي أنها في التحليل النهائي أجهزة إقليمية تفكر إقليمياً وتقدر إقليمياً وتنشط إقليمياً . ويترتب على هذا أمران :

أولهما : ان نشاطها مهما كانت صورته ومهما كان مداه لن يؤدي الى مولد التنظيم القومي العربي الواحد.

ثانيهما : أن التنظيم القومي العربي الواحد هو الوسيلة الوحيدة لاستغناء النضال العربي الواحد عن نشاط تلك الأجهزة .

وهذا يحدد للثوريين العرب واجبا ذو شقين :

أولهما : الكف عن توقع أن تلك الأجهزة رائدة و(قائدة) في تكوين التنظيم .

ثانيهما : المبادرة في تكوين تنظيمهم القومي .

وهكذا تنحسر المشكلة في علاقة الثوريين العرب بقيادة " جمال عبد الناصر " لمعركة التحرر العربي .

فمن ناحية لا بد من أن يقوم التنظيم القومي قائداً للنضال القومي وهو ما يعني أن تكون قيادة جمال عبد الناصر وكل المناضلين في معركة التحرر جزءاً منه .

ومن ناحية ثانية لا بد لجمال عبد الناصر " أن يسهم إيجابياً في تأسيسه .

وحل هذه المشكلة تقع على عاتق طرفيها وليس على أي طرف منه .

فما تتوقعه جماهير الأمة العربية من جمال عبد الناصر يعتبر واجباً قومياً على جمال عبد الناصر وهو مسؤول تاريخياً عن أداء هذا الواجب ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات يطرحها التركيب السياسي الداخلي في جمهورية مصر العربية ومسؤولية إدارة دولة إقليمية . المنطلق القومي يحتم أن تكون الأولوية لكل ما هو قومي فلا يضحي به من أجل ما هو إقليمي . ومع معرفة الكثافة التاريخية للإقليمية في مصر ، فإن أصعب مراحل الانطلاق القومي وهي الانفتاح على الأمة العربية وتسخير الإمكانيات الإقليمية من أجل النضال القومي قد تمت بقيادة جمال عبد الناصر في معركة التحرر العربي . فما هو مطلوب من جمال عبد الناصر هو مد المنطلق العربي الذي يدير به معارك التحرر ليكون أساساً موحداً لمعارك الوحدة والتنمية والاشتراكية وعلى وجه خاص ليكون أساساً للعمل الجماهيري والشعبي ..... " (بيان طارق )

١٠ - وفي غير موضع من هذا " المنشور " أكد عصمت سيف الدولة إيمانه كمناضل قومي بقيادة عبد الناصر للحركة القومية وللتنظيم القومي الذي يدعو لبنائه .

ولكن قيادة عبد الناصر للحركة العربية الواحدة أو " التنظيم القومي " شيء ، ووجود " أجهزة عبد الناصر " الإقليمية في هذا المشروع شيء آخر ، وهو أمر لم يتوان عصمت سيف الدولة عن التحذير منه .

ولكن لتصور سيناريو وقوع هذا " المنشور " أو " الكتيب " في يد أجهزة عبد الناصر ( وهو لا بد قد وقع ) ، فهل كانت لتغفر لعصمت سيف الدولة هجومه عليها واتهامها بألفاظ صريحة في بيان طارق بأنها : " ضيقة النظر .. تنظر الى النضال العربي وتعالجه بطريقة إقليمية .. تفتقد الكفاءة الفكرية والعقائدية اللازمة لأية مساهمة مجدية في النضال القومي الجماهيري .. لا تتمتع بأية كفاءة في تنظيم الجماهير وقيادتها وقد فشلت في كل مرة حاولت هذا .. ( بيان طارق )

والسؤال الذي لا بد يحتاج إلى إجابة منا هو :

هل كان عصمت سيف الدولة محقاً في نقده لهذه الأجهزة لصالح قيادة عبد الناصر للجماهير العربية أم كان على خطأ ؟

ولا بد أن نسترعي نظر القارئ الى أن كل هذا النقد " لأجهزة عبد الناصر " كان بعد نكسة حزيران / يونيو .. النكسة التي كشفت فقر هذه الأجهزة .. الأجهزة التي أنتقدها عبد الناصر بعد النكسة فيما أطلق عليه هو نفسه " دولة داخل الدولة " .. أيًا كانت الإجابة عن هذا السؤال ، فإن قصة بيان طارق لم تكن قد انتهت عند حدود كتيب أو " منشور " كتب ونشر ووزع على دائرة ضيقة أو واسعة من " أنصار الحركة العربية الواحدة " أو " التنظيم القومي " .

لا نملك في أيدينا من الوثائق ما يمكننا من الجزم من أن " أجهزة عبد الناصر " لم تحصل على هذا الكتيب " المنشور " ، وليس لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنها " رحبت " بما جاء فيه من نقد مرير لها بسبب عدم كفاءتها وضيق افقها .

ولن يكون صعبا ، والحال هكذا ، أن نتصور كيف يمكن أن يكون رد فعلها على هذا النقد !!

ما هو موجود تحت أيدينا ان عصمت سيف الدولة قبض عليه في مطلع حكم السادات وسيتهم بإنشاء " تنظيم قومي " هدفه قلب أنظمة الحكم في الوطن العربي . ليصبح ما سمي " بتنظيم عصمت سيف الدولة " أول تنظيم يتم القبض عليه في عهد الرئيس السادات ومحاكمة أفراده والحكم عليهم بسنوات طويلة في السجون . وسيتردد في محاكمة عصمت سيف الدولة ورفاقه أن أجهزة الدولة كانت " تراقبه " عن قرب ، وقيل سنوات قليلة من القبض عليه ، فإذا عرفنا أن القبض على عصمت سيف الدولة كان في عام ١٩٧٢ فإن هذا يعني أن " أجهزة عبد الناصر " كانت قد وضعت عيونها عليه قبل وفاة الرئيس جمال عبد الناصر نفسه !!؟ .

وهو أمر يعني أن هذه " الأجهزة " كانت قد بدأت في تصنيف عصمت سيف الدولة في قائمة المعادين لها مع ما يحتمله هذا من سوء ظن ..

### حديث عن المرتدين

١١ - كان هناك سبب آخر عرفه بعض من أقرب من عصمت سيف الدولة أو من تحاور معه شخصياً . هؤلاء عرفوا فيه وعنه " مقتته الشديد " لمن يضعون ولاءهم للأشخاص فوق ولاءهم للأفكار . وهو يوضح موقفه - في وقت لاحق - قائلاً :

" ... كان مثيرا للدهشة ثم للغضب أن قادة الردة هم ممن كانوا يحيطون بعبد الناصر ويذهبون في التعبير عن الولاء لشخصه الى حد تحريم كلمة " لا " في مواجهته وتكفير نقده . نافقوه حياً حتى المذلة وناقفوه بعد مماته فركعوا أمام تماثيله الصماء . ولبسوا قميصه الى حين . أولئك لم يكن أحد ليجرؤ على إنكار أنهم هم " الناصريون " أيا ماكان مفهوم الناصرية " في حياة عبد الناصر . فقد كانوا حريصين على أن يجمعوا في أشخاصهم علاقة الولاء وعلاقة الانتماء وعلاقة الوفاء وعلاقة الرجاء . أولئك الذين كانوا يحتكرون كهانة معبد " الناصرية " ويقومون من أنفسهم طبقة عازلة بين القائد والجماهير ويصدرون أحكام الحرمان وأحكام القبول الى ساحة الثورة . أولئك الذين نثروا بأيديهم على ثياب الثورة ما علق بها من نقاط سوداء ثم عادوا يشيرون إليها بأصابعهم العشرة . هم الذين كانوا مع " الديكتاتورية " منذ بداية الثورة ، وهم الذين كانوا قضاة المحاكم الاستثنائية . وهم الذين أصدروا أحكام الإعدام ونفذوها . وهم الذين حولوا زنازين المخابرات العامة والبوليس الحربي الى أماكن تعذيب وسجون . وهم الذين عفوا بعد ذلك عن المجرمين وسهلوا لهم الإفلات من نفاذ أحكام القضاء . وهم الذين أنشأوا وقادوا الاتحاد القومي ، وهم الذين أنشأوا وقادوا الاتحاد الاشتراكي العربي . وهم الذين نكصوا عن الإسهام في تنمية " وطنهم " فلم يستطع أن ينعم بخطة اقتصادية ثانية . وهم الذين كانوا مديرين لقطاع العام فنهبوه وأفسلوا ما استطاعوا من مؤسساته . وهم رجال الدولة التي انهزمت في ست ساعات عام ١٩٦٧ . وهم الذين ألهموا القائد فمنحوه تفويضاً مطلقاً بأن يفعل ما يشاء بعد هزيمة ١٩٦٧ . وكان أكثر ما أثار الإشمزاز واستفز المشاعر أن المرتدين قد استجلبوا الهاربين من مخابئهم وكانوا هم الذين حملوا عليهم حتى هربوا ، ثم مكنوهم من اشفاء غليل الحقد على الرجل الذي قاد حركة تطهير المجتمع منهم . وحل فجر العداة لعبد الناصر الميت محل ذل الرياء لعبد الناصر الحي ... " (٣)

١٢ - كانت الساحة السياسية بعد وفاة عبد الناصر تضج بفصائل مختلفة من دعاة الناصرية وإدعاءها من كل شكل ولون ، حيث كان الانتساب لعبد الناصر مشروعاً لمن يطلبه رجاء أو رياء ، رجاء لمصلحة قريبة أو محتملة ، ورياء لجماهير أسبغت على بطلها في حياته كل ألوان العشق والتقدير ، فكان التسابق على قميص عبد الناصر وتركته جزءاً من معارك هؤلاء لاكتساب شرعية الوجود بعد أن خلت الساحة من الزعيم الذي كان وحده صاحب الشرعية الجماهيرية .. ولم يكن من الممكن لعصمت سيف الدولة أن يجيب عن السؤال المستفز : هل أنت ناصري ؟

١٣ - فمنذ منتصف السبعينات سيكرس عصمت سيف الدولة عدداً لا بأس به من كتاباته الفكرية في الدفاع عن منجزات عبد الناصر، وفي ذات الوقت يستنفذ عدد كبير من " رجال عبد الناصر " كل مواهبهم في " كتابة مذكراتهم الشخصية " للتدليل على درجة قربهم من " الزعيم " . وكان عصمت سيف الدولة يكرس كل جهده الفكري في الدفاع عن إيجابيات حقبة عبد الناصر ومواجهة حملة المرتدين . وسيصدر كتابه الممتاز " هل كان عبد الناصر دكتاتوراً ؟ " للدفاع عن تجربة البناء الاشتراكي التي قادها عبد الناصر ومواجهة الحملة التي كان يشنها اليمين واليسار في آن واحد تحت دعاوى الديمقراطية وسيصدر بعد هذا الكتاب تقييمه وموقفه من تجربة الديمقراطية في عهد عبد الناصر في كتاب الاحزاب ومشكلة الديمقراطية .

وسيكتب عصمت سيف الدولة مدافعاً عن القطاع العام وحق الشعب فيه ( كتيب : رأسماليون وطنيون ، ورأسمالية خائنة ) . وسيكتب عن الصلح مع العدو الصهيوني الذي قاده السادات دراسة قانونية وسياسية تناولت معاهدة كامب ديفيد ( كتاب : هذه المعاهدة ) . وسيكتب يحذر مرة أخرى منظمة التحرير الفلسطينية من مخاطر الاعتراف بعودها الصهيوني الإعتراف المستحيل وغير ذلك كثير .

وكانت كل هذه الدراسات هي السلاح النظري الذي حملته عدد كبير من الشباب الناصري في حربهم ضد الردة والمرتدين .

١٤ - الواقع أن عصمت سيف الدولة يؤكد حقيقة أنه لم ينخدع بالسادات منذ اليوم الأول لتوليته خلافة عبد الناصر ويقول في هذا الشأن : " منذ اليوم الأول لوفاة عبد الناصر توقعت ما أصبح اليوم واقعاً . أولاً لأنني كنت أعرف معرفة صحيحة الدور القومي الذي يقوم به عبد الناصر . وثانياً لأنني كنت أعرف معرفة صحيحة أنور السادات ( منذ عام ١٩٤٦ ) . فقد كان أنور السادات إقليمياً منذ بداية حياته العامة . وأياً ما كان من أمر ذاته فإنه لم يلبث حتى ارتد عن الاتجاه القومي التقدمي لثورة تموز / يوليو الناصرية .. فانتقلت المعارك بالنسبة لي ، وبالنسبة إلى كل قومي حقاً وصدقاً ، إلى القاهرة . وأصبحت مقاومة الردة والحفاظ على الانتماء القومي واسترداد مصر إلى مركز القاعدة للحركة القومية هو القضية القومية المركزية . ولقد أخطأ الذين لم يستمعوا إلي من قادة منظمة التحرير الفلسطينية حين نبهتهم إلى أن قضية مصر ، وليست قضية فلسطين قد أصبحت القضية المركزية بعد اتفاقية كامب ديفيد ( ٤ )

### حديث عن الحزب الناصري

١٥ - " .. ان الناصريين كانوا ، وما يزالون على ما أعتقد ، أكثر انتشاراً على المستوى الشعبي من أية قوى أخرى .. وكان عليهم أن يتحولوا من تيار شعبي غير منظم إلى قوى جماهيرية منظمة . إلى حزب . ولكنهم كانوا يواجهون في سبيل ذلك عدة عوائق ذات طبيعة نظامية

وتاريخية لم يواجهها ولا يواجهها مجتمعة حتى الآن أي تيار آخر . منها عداء الدولة وإنكار شرعية التنظيم عليهم . ومنها غياب الخبرة بالتقاليد التنظيمية لدى الجيل الجديد . ومنها افتقاد قيادة محورية مقبولة من الجميع . ومنها الناصريون " الرماديون " الذين أرادوا أن يكونوا ساداتيين فعلا جلباً للكسب الحالي ، وناصرين قولاً ليستحقوا الكسب المحتمل ، فأضعفوا أثر الفرز الحاد الذي كان كفيلاً بأن يخدم هدف التحام الناصريين قولاً وعملاً في حزب . ومنها أخيراً وليس آخراً عقبة كيفية التنظيم ، الصيغة التقليدية هي أن تلتقي أقلية من الصفوة على مبادئ يصوغونها ثم يدعون الناس الى الالتحاق بهم ، أو يستقطبونهم أفراداً حتى يكون للهزم الذي بدأ من قمته قاعدة جماهيرية كافية لحمل ثقل مبادئه فيستقر . مشكلة الناصريين أنهم قاعدة جماهيرية عربية لا بد أن يبدأ منها بناء هرمهم التنظيمي . وهي مشكلة عويصة لأنها كانت تقتضي قبل أي بناء تنظيمي التحقق من أن كل فرد من القاعدة ناصري . وكان هذا التحقق يفتقد المعايير الموحدة كما يفتقد الحكم المقبول من الجميع أو حتى من الغالبية ليتولى الفرز على ضوء تلك المعايير . باختصار ، كان مطلوباً لتسهيل مهمة تحول الناصريين أو أغلبهم الى قوة منظمة الإجابة على سؤال : من هو الناصري ؟ " ولم يكن ثمة إجابة على السؤال إلا قول الموجه إليه فرداً .. ولم يكن ما ينسبه كل فرد الى نفسه كافياً أو ملائماً لبناء تنظيم .. ولقد استطاع الناصريون أن يتحولوا عن طريق تفاعل قريب الشبه من التفاعل الكيميائي من أفراد ( ذرات ) الى جماعات ( بلورات ) وأن تتجمع البلورات في كتلة ( حزب تحت التأسيس ) يقاوم ذوبان كل أفرادها وجماعاتها أفراد وجماعات . فاصبح محتوماً عليهم جميعاً أن يجيبوا على السؤال المؤجل : " من هو الناصري ؟ .. وهم فاعلون إن شاء الله ... " (٥) .

ويضيف عصمت سيف الدولة : " أياً ما كان المستقبل ضمن منطلق الولاء القومي ووعي أبعاد وقوى المعركة القومية التي أصبحت مصر ساحتها ، رأى القوميون أنه واجب قومي عليهم نحو أمتهم أن يبذلوا كل ما يستطيعون من جهد للإسهام أو المساعدة على ان يلتحم الناصريون في تنظيم هو القادر بجماهيره على أن يحسم المعركة ضد الردة لصالح مصر العربية كما يمكن أن يكون في مرحلة لاحقة وبعد النصر في الإقليم القاعدة قابلاً للنمو تنظيمياً قومياً .. " .

وسيحمل عصمت سيف الدولة على عاتقه إلى حد كبير عبء الدفاع عن حق الناصريين في حزب سياسي أمام القضاء ، وسينجح عبر موهبته القانونية وحكته السياسية حتى صدر الحكم القضائي بشرعية حزبهم " تحت التأسيس " ليصبح حزباً جديراً يحمل إسم البطل القومي .

### حديث عن التنظيم القومي

١٦- ولا نود أن تنتهي هذه الدراسة قبل أن نخوض في السؤال الذي طالما ثار في الأذهان : هل كان عصمت سيف يصنع تنظيمياً قومياً ؟

لسنا بحاجة لكي نجيب من عندنا على هذا السؤال " بأثر رجعي " فلقد أوضح " عصمت سيف الدولة " موقفه من بناء التنظيم القومي منذ البداية في بيان طارق .

" ... إن الخبرة العينية أكدت في كل مرة أن إنشاء التنظيمات الجماهيرية عن طريق القيادة تسلب الرابطة بين تلك الجماهير أحد شرائطها الأساسية فتصبح تنظيمات فردية . فعندما تتولى القيادة إنشاء التنظيم :

١ - تكسب صفتها كقيادة قبل نشأة التنظيم .

٢ - تدعو الى التجمع حولها في التنظيم .

٣ - تختار الكوادر القيادية في هذا التنظيم .

ويترتب على ذلك :

١ - أن تظل القيادة " دائما " فوق التنظيم الذي أوجدته فتحول بالتالي دون التطور الديمقراطي والثوري للتنظيم ومن داخله ، ويصبح النشاط الديمقراطي والثوري مباحا على ألا يصل الى حد نقد القيادة أو تغييرها .

٢ - كما أن الدعوة الى التجمع في تنظيم حول قيادة معينة يحول هذا التنظيم الى تنظيم للقيادة وليس تنظيماً للأمة العربية . وينعكس هذا على مقدرة التنظيم في مواجهة النضال العربي في مواقع بعيدة عن اهتمامات القيادة ، ثم أنه يعرض التنظيم ذاته الى ما تتعرض له القيادة من انتكاس أو تراجع أو انحراف .

٣ - أن تولي القيادة اختيار الكوادر بعيدا عن الديمقراطية التنظيمية - لأن التنظيم لم يكن موجودا أصلا قبل اختيار الكوادر - يحصر التنظيم منذ نشأته في مضائق التقدير الشخصي والتجارب المحدودة التي لا بد لها من أن تكون إقليمية بحكم الحصر الإقليمي الذي يفرضه واقع التجزئة في الوطن العربي ، ويتضاعف هذا وينكشف كلما اتسع التنظيم ، إذ تتولى القيادة شخصياً اختيار ما يليها من مستويات وهذه تختار ما يليها ... الخ وهكذا تصبح الرابطة الحقيقية في التنظيم مستندة الى علاقات شخصية مجردة تماماً من المبرر الموضوعي أو العقائدي وعندما يصل الأمر الى هذا الحد يكون التنظيم قد أصبح مؤسسة من الأشخاص الذين تربطهم روابط خاصة لا علاقة لها بالمتطلبات الموضوعية لنضال الأمة العربية . فلا يلبثون أن يتخذوا من التنظيم أداة لعزل القيادة عن الجماهير خارجة ، أو مطاردة من يتوقعون منهم أن يكونوا منافسين لهم في مراكزهم القيادية ، ويؤدي هذا - وغيره - الى أن ترفض عناصر ثورية مجرد الزج بنفسها في هذا الجو التنظيمي وصراعاته الانتهازية " (بيان طارق )

كان هذا هو موقف عصمت سيف الدولة من التنظيمات التي تنشأ حول قيادة شخصية تسبق بناء التنظيم وتوجهه وتقوده وقد تنحرف به .

وعلى الرغم من الموهبة الفكرية أو التنظيمية التي كان يتمتع بها عصمت سيف الدولة ، إلا أنه لم يرد أن يضيف للأمة العربية فشلاً جديداً باصطناع حزب سياسي حول شخصه يعيق من حركتها نحو المستقبل ، وترك هذه المهمة للشباب العربي المؤمن بها .

## خاتمة واجبة

ان التمجد والإخلاص و الحب لا تكفي لإخراج أمتنا من عثرتها ما لم يتسلح المناضلون العرب بالأسلوب العلمي في العمل السياسي ، وأول قوانينه إن وحدة الهدف تقتضي وحدة التنظيم .

لو أدرك هذا القانون كثيرون ممن عملوا في ساحة الوطن العربي على مدار العقود الأربعة الفائتة ما كانت أمتنا العربية وشعبنا العربي ليصلا إلى هذا الظلام المخيف . لو أدرك كثيرون

كم من البشر والأعمار راحت من أجل هدف " الحركة العربية الواحدة " ما كان الاحتفال بذكرى رحيل المناضلين القوميين ليتشج بكل هذا الأسى والمرارة .

ما كان عبد الناصر القائد الخالد أو عصمت سيف الدولة الكاتب القومي العربي الكبير بحاجة لكلمات احتفالية أو تكريم إنشائي .

إن روحيهما لن تستقرا عند بارئهما إلا يوم يقيم المناضلون العرب لأمتهم تنظيمها القومي الذي يحقق لها وحدتها السياسية .

وهم أن شاء الله فاعلون .

\*\*\*\*

### هوامش

- (١) عصمت سيف الدولة , عن الناصريين .. وإليهم ( القاهرة : دار الموقف العربي ، ١٩٨٩ ) .
- (٢) المصدر نفسه
- (٣) المصدر نفسه ص ١٦- ١٧ .
- (٤) المصدر نفسه .
- (٥) المصدر نفسه .

\*\*\*\*\*

### تعقيب

#### أمين اسكندر ( باحث من مصر )

لا بد في البداية من أن أقرر أنني قد واجهت معضلة في التعليق على هذه الورقة حيث إنني متفق مع الباحث في صراحته وفي نتائجه أيضاً ، ولذلك اخترت أن أساهم بالتعليق بغرض تعميق الغرض والهدف من الورقة ومحاولة استشراف المستقبل، مستقبل المشروع الفكري والمشروع الحركي.

١- على الرغم من اتفاقي مع الباحث على أن اجتهادات كل من المفكرين الثلاثة الكبار عصمت سيف الدولة وعبد الله الريمائي ونديم البيطار، جاءت تعبيراً عن تفاعلهم مع تجربة ثورة ٢٣ تموز/ يوليو وما طرحته من أفكار وإشكاليات، كما جاءت تعبيراً عن إيمانهم بدور مصر كقاعدة للفعل ولدولة الوحدة ، إلا أنه يظل السؤال المهم يحتاج إلى اجتهاد واجابة ، حتى نساهم في إضاءة مساحات الظلام التي نشرها حوله. لماذا لم يندمج عصمت سيف الدولة في الثورة الناصرية؟ ولماذا اختار أن يحافظ على مسافة بينه وبين الثورة؟

حاول الباحث أن يقدم اجتهاده في إجمال وذلك بما سماه الحملة "الماركسوية" على عصمت سيف الدولة وإبداعه الفكري، وأجهزة الدولة الناصرية وإقليميتها، ومشروع بيان طارق، أي مشروع التنظيم القومي للدكتور عصمت سيف الدولة، وأخيراً الانتهازية : انتهازية الأفكار والأفراد. ولا أجدني مختلفاً على ذلك، وإنما يهمني أن أوضح الآتي لتعميق ذلك السياق.

أولاً : لقد كان جمال عبد الناصر قائداً ثورياً لحركة الثورة العربية ، وفي الوقت ذاته قائداً لأهم وأكبر دولة في الوطن العربي ، بكل ما يعنيه ذلك من تضارب مصالح أحياناً بين الثورة والدولة وبين الحركة القومية والمصالح القطرية. ناهيك عن تحمله لميراث هائل من أجهزة الدولة القطرية، ويجب ألا ننسى أننا نتحدث عن أقدم دولة في المنطقة ، ومن غير المنطقي أن نتصور قائد الثورة العربية منقلباً على أهم أداة في يده للإسراع بنشر الثورة وأفكارها ولتنشيط المشروع القومي العربي في مصر، وبالذات بعد أن تبين للجميع أنه لم يأت بتنظيم عقائدي طليعي يساعده على تلك الدولة القطرية.

ثانياً: إن جمال عبد الناصر لم يكن في مسيرته النضالية قبل الثورة وبعدها في الدولة مؤمناً بالسبق الأيديولوجي على الواقع، ولا بالنسق الأيديولوجي المغلق المفسر لكل صغيرة وكبيرة في الواقع، إنما كان مؤمناً بجدل الواقع مع الفكرة، والفكرة هنا تعبير عن مبادئ حاكمة لفترة زمنية قصيرة ، معروف أبعدها دولياً وإقليمياً ومحلياً أو قطرياً . وكان ذلك واضحاً في المبادئ الحاكمة لثورة ٢٣ يوليو، وكان واضحاً في فلسفة الثورة ومن بعدها الميثاق ثم بيان ٣٠ مارس . وهذا تعبير حقيقي عن القيادة التاريخية التي تضع نصب أعينها الفعل التاريخي المسؤول عبر ديالكتيك الواقع – الفكرة . أما مفكرنا الكبير عصمت سيف الدولة فقد كان همه المحوري المشروع الفكري وأداة الفعل التنظيمي : النسق العقائدي وانتظام المؤمنين به. وشتان بين الطريقتين ، الطريق الأول بفضل البناء السريع وتحقيق الإنجازات، وإحداث الفعل ورد الفعل. وتحضرني هنا عبارة للمؤرخ الكبير والمفكر المستشار طارق البشري سمعتها منه عندما قال تعليقاً على صدام عبد الناصر مع المثقفين : "عبد الناصر مثل "البناء" يريد أن يناوله مساعده أحجار البناء بسرعة وباستمرار، وهو يقوم بوضع الحجر على الحجر. لكن المثقف لا يستطيع أن يفعل ذلك فهو يريد أن يتأمل في المساحات والجماليات والأوزان .. الخ بينما الثورة لن تنتظر، فالمعارك متوالية، ومن هنا كان الاعتماد على الدولة وأجهزتها". والطريق الثاني يرى في العقيدة ضمانته للمسيرة ونجاحها. وتلك هي المعضلة : كيف تبنى حركة عربية وقومية عربية ناهضة بأجهزة دولة إقليمية : القوميون ومنهم عصمت سيف الدولة لا يرون أية إمكانية لذلك ، وانطلاقاً من ذلك اختار عصمت سيف الدولة طريقه؟ طريق الحفاظ على مساحة بينه وبين نظام ودولة عبد الناصر، فهو الذي أदान محصلتها في مقدمة أسس الاشتراكية العربية ونظرية الثورة العربية " إن الحساب الختامي للمسيرة غير العقائدية كان خسارة فادحة " ، ومنتقل بعد خلق المساحة الفكرية ، إلى ممارسة الحركة التنظيمية في المساحات العربية، وكان ذلك يعني الخصام ، بل الصدام أحياناً ، فجمال عبد الناصر يتحرك ويجند عبر الطليعة العربية " التنظيم القومي لعبد الناصر" وعصمت سيف الدولة يتحرك في " أنصار الطليعة ". الأول قائده عبد الناصر، والثاني يتحرك تحت اسمه من دون أن يكون ذلك متفقاً عليه ، ومن هنا كان الصدام أحياناً، وبالذات عندما نعلم أن حركة عصمت سيف الدولة بدأت بعد هزيمة ١٩٦٧، وظلت بعد رحيل عبد الناصر، كما ظلت الطليعة العربية بعد رحيل زعيمها إلى أن تمت إعادة تشكيلها، وبعد سنوات تصاعدت الخلافات داخلها وتفككت.

من هنا كان طبيعياً أن نسمع أثناء الحركة النضالية للقوميين بعد رحيل القائد عبد الناصر تعبيرين متميزين : الناصرية والعصمتية.

وهنا تحضرني واقعة حدثت في عام ١٩٧٥، عندما دعا نادي الفكر الناصري بجامعة القاهرة المفكر الكبير عصمت سيف الدولة لإلقاء محاضرة يعقبها حوار حول نظرية الثورة العربية ، وفي نهاية اللقاء تعمدت قيادة النادي في ذلك العام ومعها بعض الدارسين العرب من الناصريين أن يحددوا بوضوح وحزم الفروق بين فكر عبد الناصر وفكر عصمت سيف الدولة ، وكتب تقرير بذلك وأرسل لنشره في جريدة الطلاب صوت الناصريين في تلك المرحلة ، وكان ذلك

راجعاً لرؤيتنا أن عصمت سيف الدولة يتحرك في وسط جماهير عبد الناصر وينظم فيها استثماراً لشعبية عبد الناصر من دون أن يكون ذلك متفقاً عليه.

كان عصمت سيف الدولة مصراً على الحفاظ على المساحة بينه وبين الشباب الناصري ، وعلى رغم رحيل عبد الناصر وإيماننا جميعاً بنقاء معدنه القومي وإخلاصه لمشروعه الفكري إلا أنه لم يبذل جهداً كافياً لمد جسور التواصل مع الأجيال الجديدة من الحركة الناصرية . وهي أجيال تأثرت كثيراً بأفكاره سواء في نقد الماركسية أو تعميق القومية والانتماء إليها نظرياً وحركياً .

وعلى رغم أن سلوك عصمت سيف الدولة اليومي في حركته وعمله كان تعبيراً عن التزامه القومي إلا أن سلوك عصمت التنظيمي كان دائماً محافظاً على مساحة التمييز بيننا وبينه ، لذا كان طبيعياً أن يسأل كل من يسأله : هل أنت ناصري؟ فيجيب : قل لي ماذا تعني بالناصرية حتى أجيبك؟ لأن لعصمت مفهومه للناصرية وله أيضاً مقياس لتجسيد الناصرية قومياً عبر الانضمام لأنصار الطليعة. وبعد هذه السنوات التي مرت وبعد رحيل عصمت سيف الدولة ، فإنني أرى ومن باب إعلاء شأن الحكمة بأثر رجعي أن عصمت سيف الدولة لم يكن موفقاً في " تجديد " العلاقة بينه وبين الناصريين الجدد من الشباب، وأعتقد أن الحائل دون ذلك مشروع عصمت التنظيمي ، وفي اعتقادي أن الوضع كان لا بد أن يختلف لو اندمج عصمت سيف الدولة في حركة الشباب الناصري بإيجابياتها وسلبياتها كما فعل في فترة من الفترات د. عبد الكريم أحمد والمناضل كمال رفعت . إلا أنه فضل الحفاظ على المساحة التي أوجدها بإرادته تارة بسبب الدولة وأجهزتها ، وتارة بسبب التميز والسبق والاستمرار في المشروع التنظيمي .

وعلى رغم كل ذلك يظل السؤال مطروحاً لماذا لم تتم الاستفادة من قبل الدولة الناصرية والمشروع البنائي الناصري من جهود وإبداعات عصمت سيف الدولة؟

ثالثاً : يرجع ذلك في اعتقادي أيضاً وبعد قراءة متأملة للتجربة ، لصدام عصمت مع الدولة ورجالاتها ولصدام عصمت أيضاً مع الحركة الشيوعية ، والتي اختار معظمها طريق الاندماج داخل تجربة عبد الناصر. إذ إن عصمت قد شن عليهم هجوماً فكرياً كاسحاً ، منتقداً حركتهم الإقليمية ومنظومتهم الفكرية ما جعله هدفاً دائماً بالنسبة لهم وجعله هدفاً دائماً من قبل موظفي الدولة الناصرية التي نجحت عبر الأجهزة الأمنية بإدخال ودمج نشطاء الحركة الشيوعية في التنظيم السياسي وتقلدوا مواقع مؤثرة في التنظيم السياسي ، وكان لا بد من أن يدافعوا عن ذلك .

كما يرجع ذلك في تصوري إلى مرحلة التحول الاشتراكي التي كانت تمر بها الجمهورية العربية المتحدة وما يعنيه ذلك من احتياجات في التنظير الاشتراكي ، وكان الشيوعيون هم أقرب إلى ذلك من القومييين. بالإضافة إلى أن الشيوعيين كانوا موجودين قبل الثورة وبعدها. وكان ذلك مؤشراً لهيمنة الأجهزة وعدم قدرتها على التمييز، كما كان مؤشراً لفرض وهيمنة المشروع الناصري . وتكشف لنا مسيرة النضال القومي أن خلاف أبناء المدرسة الواحدة أصعب وأشرس من الخلاف مع المدارس الأخرى . ويكفي تدليلاً على ذلك الخلاف البعثي الناصري والخلاف الناصري مع حركة القومييين العرب في فترة من الفترات ، فكل اتجاه وتجسيد حركي يحاول أن يكون هو صاحب الشرعية القومية الوحيدة في الأمة.

لكل ذلك استقرت الفجوة بين عصمت سيف الدولة وعبد الناصر ودولته.

وأخيراً حان الوقت للإطالة على المستقبل . مستقبل أبناء التيار القومي المؤمن بعروبتة والمناضل من أجل دولة الوحدة العربية.

ولعل ذلك يجعلنا نطرح وبصدق أهمية مراجعة وتقويم كل الأفكار والنظريات والاجتهادات القومية الحركية مع التمسك بكل الثوابت والمنطلقات المعبرة عن حقائق جغرافيا وتاريخ وإرادة الأمة في المستقبل. وتأتي أهمية تلك المراجعة وذلك التقويم من منطلق ما تم من تغييرات على خريطة موازين العالم بعد انهيار تجربة الاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية ، وما سببه ذلك من تصدعات كبيرة للنموذج الاشتراكي . وعلى رغم أن القوميين كانوا من الأوائل الذين انتقدوا تلك التجربة ، إلا أنهم وقعوا في أسرها وغواية نسقها المغلق الذي يقوم بإعطاء تفسيرات لكل الظواهر والتبريرات ، إلا أن تجربة الانهيار بعد ذلك أكدت أنه من الخطر تصور أن كل شيء له حل ، وأن سيادة المنطق الأيديولوجي المنهجي القائل بأن لكل مشكلة حلاً واحداً صحيحاً ، ليس صحيحاً في عالم اليوم ، فهناك عشرات الحلول للمشكلة الواحدة بحسب الرؤية وبحسب فهم سمات ومميزات المرحلة وبحسب الأدوات والأساليب الممكنة والمستخدم.

إن القول البسيط والمجرد بأن الأمة العربية واحدة وأن طريق التغيير نحو تحقيق أهدافها في الوحدة والتقدم والحرية هو طريق الثورة العربية الشاملة والذي لن يتم إلا عن طريق الحركة العربية الواحدة، أي التنظيم القومي ، هو تصور من الصعب التفاعل معه في عالم اليوم ، على علته ، وحين وقت الاعتماد على دور المواطن العربي في تخليق شبكة من الأدوات الحياتية الرابطة والصانعة لمعمار الوحدة. باختصار: بناء الوحدة من أسفل بالتركيز على دور المواطن الذي يختار بنفسه الانضمام إلى تنظيم قومي أو لجنة تنسيق قومي أو نقابة قومية أو مركز لحقوق الإنسان القومي أو العمل من داخل رابطة للكتاب العربي أو الموسيقى العربية أو... الخ . رغم معرفتنا بالفرق بين أداة لها القدرة على تجسيد الاستراتيجية وأدوات مساعدة.

فالمسألة تحتاج إلى وقت طويل ونضال دؤوب ولن يحلها امتلاك التنظيم القومي، وإنما بالتأكيد وعبر نهج التراكم سوف يكون التنظيم القومي مفيداً ، بل أكاد أقول أكثر من تنظيم قومي . المهم أن تكون الاستراتيجية وحدوية هي المهيمنة على تلك التنظيمات القومية المتعددة.

كما أن المشروع القومي لا بد أن يعيد تقويم مسيرته على مستوى الفكرة والحركة معاً بشأن الديمقراطية، فلم يعد مسموحاً التنازل عن الديمقراطية في سبيل الوصول إلى الوحدة حيث ثبت أنه لا وحدة من دون ديمقراطية ولعل تجربة الانفصال تؤكد ذلك. كما أن الخطاب القومي المعبر عن المشروع القومي يحتاج لتأمل حول مسألة العلاقة بين القطري والقومي والدولة القطرية ومشروع الدولة القومية. فلا أحد يتصور أن مجرد الأيديولوجيا سوف يساهم في حل المشاكل ، إنما المشاكل تحل عبر التراكم الإيجابي من الفعل الإداري للبشر، وهو الطريق الوحيد لسد الفجوات، أما القفز عليها فلن يحل شيئاً . ولعل ما حدث من انهيارات في حركة تحرر العالم الثالث ومنظومة الكتلة الاشتراكية يؤكد لنا صحة هذا الطريق التراكمي.

بل لعلني أجازف وأطرح سؤالاً أرى فيه جراً التغيير: هل نحن كقوميين نحتاج إلى نظرية كاملة ومنهج للتغيير أم نحتاج أكثر إلى فهم الفعل التاريخي المرتبط بتفهم الظرف الموضوعي والذاتي للمرحلة ومحاولة تضافر الفعل الإنساني مع تلك الحالة؟ وسؤالي الآخر تعبير عن افتراض جدلي : ماذا لو كنا امتلكنا التنظيم القومي، ما الذي تغير في المسيرة؟ هل كان الانفصال غير واقع؟ وهل هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لم تكن واقعة، والانقلاب على نظام عبد الناصر بعد رحيله لم يكن حادثاً؟ التاريخ يكشف لنا عن ثورات وقوى وحركات أضافت للتاريخ وصنعت من أحداثه أحداثاً دون أن تمتلك العقيدة المتكاملة، وإنما اكتفت بالمبادئ العامة لفهم المرحلة واحتياجاتها وعناصرها، كما يكشف لنا الماضي القريب كيف فسدت الأحزاب القومية، وفشلت في تحقيق رسالتها ، وكيف انهار الاتحاد السوفياتي بتنظيمه الماركسي الحديدي . من هنا أجد

لزاماً علينا كقوميين أن نقوم بتقويم مسيرة النضال العربي من عام ١٩٤٨ حتى الآن، كما يستوجب ذلك تقويم الأفكار والحركات والتنظيمات مع أجل التخلص من ثارات الماضي .

حان الوقت لنرتفع فوق ثارات لم يكن لنا يد فيها ، ونحتكم جميعاً إلى سياق الفعل التاريخي بشأن المستقبل. الأمة تحتاج إلى جهود كل القوميين . فهل حان الوقت لتلبية النداء؟

\*\*\*

## المناقشات

### ١- فادية مغيث

أعتقد أن المفكر عصمت سيف الدولة كان ناصرياً بالمعنى الموضوعي، فقد كانت الناصرية تعني لديه آلاف المصانع والاعتماد على الذات بدليل غضبه في ذكرى رحيل عبد الناصر من كتابات تركز على الوله بشخص عبد الناصر والولاء له .. في ظل حملة تعنى بالانقضاء على منجزات عبد الناصر، فقد هاجمهم وقدم جدلاً يرتكز على مضمون الناصرية ، وليس على ذات عبد الناصر... كانت الحرية التقليدية عنده مخلوقاً ناقصاً وهلامياً ، فهو يقول إنه أز عجه هتاف العمال سنة ١٩٥٤ " تسقط الحرية "، ويقول إنها كسرت شيئاً داخله وأغضبه ذلك كثيراً ، لكنه راجع المفهوم فأدرك أن كل حرية يقابلها استبداد في الجانب الآخر. فحرية العمل- للعمال- تقابلها حرية الفصل عند صاحب العمل. وحرية السلوك السياسي تقابلها حرية الأجهزة الأمنية.

### ٢- محمد أشرف البيومي

- ليس الهدف من تقويم الماضي إشباع الرغبة الأكاديمية والترف الثقافي إنما هو توضيح الأمور من أجل مستقبل عربي جيد نحن نصر ونعمل على تحقيقه.

- الحديث عن الديمقراطية الليبرالية والديمقراطية الاشتراكية مهم خصوصاً هذه الأيام التي يستخدم فيها شعار الديمقراطية للهيمنة في الخارج (أمريكا) وفي الداخل . إنه من المهم تعرية وضع الديمقراطية و"نجاحاتها" في الغرب، وإن فضح ممارسات الديمقراطية الأمريكية أمر هام خصوصاً لاستخدام أمريكا سلاح الديمقراطية والتدخل (الإنساني) للاعتداء على الدول وفرض الهيمنة عليها ؛ أي أن الديمقراطية والإنسانية أصبحتا حقاً يراد به باطل....

فباسم حرية الشعب العراقي يضرب الشعب العراقي وباسم الديمقراطية وحقوق الإنسان يعتدى على يوغسلافيا وشعبها....

إن الحرية التي تريدها لنا أمريكا هي حرية نرفضها وننادي بسقوطها.

### ٣- أحمد صدقي الدجاني

أشيد ببحث الأستاذ عوني فرسخ الذي قدم لنا فكرة واضحة عن موضوع " الديمقراطية عند عصمت سيف الدولة ". وقد جاء تعقيب الأخ المناضل أحمد نبيل الهلالي ليضيف في معالجة الموضوع ، وبخاصة على صعيد ممارسة الراحل للديمقراطية وإعلانه كلمتها في ساحة القضاء

. ثم جاء بحث الأخ د. صفوت حاتم وتعقيب الأخ أ. أمين اسكندر حول موضوع "عصمت سيف الدولة والناصرية" ليكملا ما تم طرحه في الموضوع السابق ، وقد تطرق د. صفوت حاتم إلى واقع الأجهزة الأمنية في مطلع بحثه القيم .

لقد سلطت المداخلات التي تلت العروض الأضواء على جوانب حيوية في موضوع الديمقراطية، فلسفتها ونشأتها وتطورها وتجاربها في الغرب، وما يعترضها من خلل، والديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية الاشتراكية والديمقراطية الليبرالية. كما طرحت هذه المداخلات أسئلة مهمة.

أسئلة كثيرة تدور أمامي من وحي ما سمعناه حول نقاط عدة تتصل بقضية الديمقراطية. وأكتفي بتلك التي تتصل بنقطة واحدة هي " الديمقراطية وأجهزة الأمن في الدولة ". فمعلوم أن هدف الشورى والديمقراطية وكرامة الإنسان هو أحد أهداف المشروع الحضاري العربي الستة . ومعلوم أن الدولة أداة سلطة ومنها الأجهزة الأمنية . وسؤالي الرئيسي " هل أولى فكرنا العربي عناية كافية للعلاقة بين تحقيق هدف الشورى والديمقراطية وكرامة الإنسان وواقع الأجهزة الأمنية في الدولة القطرية ؟ كيف نشأت هذه الأجهزة وما هي بنيتها ؟ ما هي الضوابط لعملها ؟ كيف تتم مراقبتها في أداء هذا العمل ؟ كيف يمكن للمجتمع بقواه المختلفة وضع هذه الضوابط موضع التنفيذ ؟

#### ٤- فريد عبد الكريم

الناصريون في مصر هم القوميون فيها . ويضاف إليهم مفكران عظيمان : د. عصمت سيف الدولة ود. محمد أحمد خلف الله ولهما أثر بالغ . وكانا يراهنان على الناصرية. وأرجو ألا يكون رهانهما قد خاب، وأرجو في المستقبل ألا يخيب.

إن د. عصمت هو مفكر الثورة ، فالذي أصل فكر الثورة الحقيقي هو عصمت سيف الدولة. فلماذا لم يقترب من عبد الناصر؟ إنه التعفف والكبرياء . فالذين تزلفوا أخذوا المناصب. ولم يكن عبد الناصر لديه حزب لكي يفرز، فقد كانت الثورة تعتمد على الأجهزة في غياب الحزب. وهذه الأجهزة يجب أن تدان، وهي قادرة على أن تعمل في أي نظام .

#### ٥- محمد سيف الدولة

لي ملاحظة على التعقيب المقدم من الأستاذ أمين اسكندر، وبخاصة على ما ورد فيه من إشارة إلى "المشروع التنظيمي" للدكتور عصمت سيف الدولة.

وبهذا الصدد فإنني أريد أن أؤكد ما يعلمه كل قرائه وتلاميذه من أنه كانت له رؤية محددة جداً بشأن الشروط الموضوعية لصحة تأسيس التنظيم القومي ، والتي تستبعد في ما تستبعد النشأة الفوقية لهذا التنظيم سواء جاءت منه أو من غيره.

ولقد ورد هذا الرأي في عدد من الدراسات المنشورة.. أشهرها دراسة سميت باسم بيان طارق [ عصمت سيف الدولة ، وحدة القوى العربية التقدمية ( بيروت ) : مؤسسة ناصر للثقافة ، دار الوحدة ] .

كما ورد في رده على العديد من الرسائل التي وردت له من شباب عربي يسأله فيها عن أسباب عدم قيامه بتأسيس التنظيم القومي..

ويبقى في النهاية سؤال يشغلني ويشغل الكثيرين من المهومين بالمستقبل القومي لهذه الأمة ويحتاج في تصوري إلى حوار واسع وموضوعي وهو:

لماذا يرصد البعض أن الهم القومي لدى التيار الناصري خارج مصر أكثر حضوراً وإلحاحاً منه لدى التيار الناصري داخلها؟..

إن أهمية هذه الإجابة عن هذا السؤال لا تمس فقط موضوع البحث محل كل المناقشة، وإنما تمس بشكل أكثر أهمية الحوار حول المستقبل .

#### ٦- الطاهر محمد عوض الله

إن فكر عصمت سيف الدولة قد شكل بحق دعماً هائلاً للدور الذي ظل يقوم به القائد القومي عبد الناصر في حياة شعبنا العربي في السودان، فقد أدركنا مع فكره هذا أن مصر قادرة على إنجاب من يتعدى تأثيرهم ودورهم حدود مصر القطرية ، وكان في هذا ما من شأنه أن يطمئنا إلى مستقبل أمتنا ومستقبل اتصالنا القومي ما دامت قد توفرت له قيادات فكرية من أمثال فقيدنا العظيم.

لقد أتاح لنا ظهور عصمت سيف الدولة المجال لكي نجد في مصر ومن أبنائها من يملأ الفراغ ويقوم صلة الفكر التي كنا دائماً في أمس الحاجة إليها ، لذلك فإن فضله علينا من هذه الناحية لا تحده حدود.

#### ٧- حمد حجاوي

بدا لي وكأن الورقة التي قدمها د. صفوت حاتم تحاول دفع اتهام من الناصريين لعصمت سيف الدولة، ونحن كناصريين نعتبر أن الراحل الكبير كان رافداً من روافد الفكر القومي ، وفي مقدمة المعبرين عن ذلك. ومن مميزات الناصرية أنها لم تأت من خلال كتاب مغلق، أي من خلال نظرية كاملة مسبقة، وإنما جاءت تعبيراً- فكراً ومسلماً - عن ثوابت أمة وعن حضارة ضاربة في عمق التاريخ الإنساني . وانطلقت في ذلك من اعتماد التجربة والخطأ في البداية.

إن ما جرى بعد سنة ١٩٧٠ وحتى الآن دلت بشكل واضح على أن الناصرية هي العلاج الصحيح للمشكلات العربية وهي الإجابة الحقيقية عن التحدي المطروح على الأمة سواء على صعيد موقفها من الصراع العربي-الإمبريالي-الصهيوني أو على صعيد التنمية المستقلة وتحقيق الثوابت، وعلى رأسها تحقيق الوحدة.

\*\*\*\*\*